بروفا للنجاة

رنا مرتجى

الشيطان

أتمنى ألا يراني الشيطان وأنا ضعيفة كما الآن، أتمنى ألا يرى صديقي الذي يرقد شهيداً في قلبي، وألا يرى البسمة التي ستذكرني فيما بعد بالبكاء، أتمنى ألا يراني وأنا أبكي جثثاً وموتى، أتمنى ألا يراني عاجزة عن حصر ما أريد في حقيبة واحدة وأنسى أن أخبئ ما تبقى في روحي في فضاء كبير، أتمنى ألا يراني وأنا أرقص في العتمة وأخون الحرب واثقة بأني لا أخون الذين اشتروا تذاكر سفرهم إلى الله، أتمنى ألا يأتي الشيطان ليشاطرني قلب أمي لتزغرد ومن ثم تبكي لسنين ، أتمنى أن يفهم الشيطان أن لا أحد يلصق العار بمدينة رسخت صور العذراء في قلوب قاطنيها، أتمنى ألا يخطر الشيطان ببال الأم التي تبكي ابنها في غرفته التي تضم بندقيته وكوفيته وقميصه الجديد ورسائل حب المراهقة ورغم ذلك فهي لم تعد تضم روحه! أتمنى ألا يأتي الشيطان مشياً على الأقدام محطماً خوفي بأخذي إلى الله، سأحتمل الخوف لا تقلقوا يا رفاق ولكني لا أريد الذهاب إلى الله الآن!

صاروخ إرشادي

٥٣ ثانية أو أقل، وإن كنت تملك حظ الأنبياء يمكنك أن تضع الاحتمال الذي يقول "أو أكثر" في رأسك:

كتعريف بسيط لما يسمى صاروخ إرشادي: هو كلمة السر لأبواب جهنم في سيناريو يوم القيامة اليومي في غزة.

ماذا ستكفي ٥٣ ثانية لأفعل يا الله؟ حسناً، لقد اعتدت الاتكال على نفسي في كل الأمور، منذ بداية

الحرب حضرت حقيبة تضم قليلاً من ملابسي التي أحب والتي لم أرتديها بعد، وبعضاً من الكتب التي احترت في أمر اختيارها في بداية الأمر، وقررت في النهاية أخذ بعض التي تحتوي على التواقيع والإهداءات والتي مازالت على ال "تو ريد ليست"، لم أنسَ شهادات تفوقي المدرسية وشهادات الإنجازات الصغيرة والكوفية التي أهداني إياها صديقي المقدسي خلال زيارتي اليتيمة إلى المدينة خلال طيلة فترة حياتي، لم أنس تذكار صديقتي ريما التي أهدتني إياه قبل سفرها بأيام، وبعض أوراق المحادثات خلال حصص الدوام المدرسي وبعض الرسائل الأخرى مع أصدقاء آخرين، واتسعت الحقيبة بعد عناء طويل لرسائل المعايدات وبعض ألبومات الصور والهدايا أيضاً.

لقد جننت، لا أخفيكم خجلي من البوح بذلك ولكن هذا ما حدث، لقد قررت عمل "بروفا" لما قد يحدث إن تلقيت صاروخاً إرشادياً فوق رأسي وأنا نائمة ليلاً، لأعرف كمية الأمور التي سأتمكن من القيام بها، قمت بتثبيت "التايمر" وبدأت الأفكار المفزعة تتضارب في عقلي ، هل سأصرخ أولاً ليستيقظ أخي الصغير الذي يشاطرني الغرفة والذي لا يعرف النوم إلا بوجود إضاءة – بينما أنا لا أجيد النوم بها وأعاني بسببه منذ وُلد وإلى هذا الحين- مما يجعل النوم أصعب عليّ خلال فترة الحرب بوجود أصوات القذائف والقصف المتواصل بالإضافة للإضاءة أيضاً. هل سأرتبك وأنسى الحقيبة؟ هل سأرتبك أمام أمي التي لن تكف عن الصراخ بأهمية العجلة وبأنني سأسبب لهم المصائب كما هي العادة دوماً بسبب كوني بطيئة وأشبه بالأموات بتنقلاتي؟ كدت أجن وأنا أضع الاحتمالات المختلفة لولا أن أمي قاطعت عليّ خيالاتي مخبرة إياي بأننا سنقيم عند عمتي قليلاً لأن منطقتهم آمنة أكثر.

بعد أن عجزت عن حصر ما أريد بحقيبة واحدة، و بعد أن عجزت عن وضع سيناريو واضح لما سأفعل لو سقط صاروخ إرشادي بالقرب من منزلنا، نسيت بأني قد لا أستطيع حصر روحي في فضاء هذا الكون الكبير، إن سقط صاروخ عليّ مصادفة وأنا أركض هاربة، أو إن لم يتمهل الطيار بإنزال الصاروخ الذي يتبع الإرشادي قليلاً..

موسيقى

هذا الحانوتي الذي لا يكف عن الصراخ بازدياد عدد الشهداء يجعل الحرب أكثر قسوة ووقع الأخبار أشد وجعاً، تساءلت ماذا سيحدث لو أنني أستمع للموسيقى بدلاً من مشاركته في إحصاء عدد الشهداء؟ وبدلاً من إحصاء عدد الغارات والطائرات والصلوات التي يتلوها كبار السن والصرخات التي يطلقها الرُضع؟ هل سأخونهم بفعلي ذلك؟

في الحرب، أعني في هذه الحرب –سأكمل السابعة عشرة بعد أيام و عشت ثلاثة حروب بخطوط سير

مختلفة- أقلعت عن عادة إدمان الراديو واستمعت للموسيقى، أتمنى أن يعلم الشيطان أني لم أخن الذين اشتروا تذاكر سفرهم إلى الله والذين ينتظرون دورهم في الطابور المكتظ، بل خنت الحرب فقط.

حياة

أخشى ألا أعود إلى حياتي بعد الحرب، للأسف لا يجمع ذهني أي علاقة بين مصطلح الجمال وغزة، اللهم إلا ذاك البحر الذي يكفيني عبقه لأكتب الأشعار إلى الأبد. حسناً، الآن هذا البحر يعبق برائحة دماء الذين كانوا يلعبون الكرة على شاطئه وأخذهم الشيطان إليه بعد أن ضربهم بصاروخ من آلته التي كانت تحوم في السماء التي لم تعد تكتظ بالملائكة بعد أن قرر الله أن يسلط جُل غضبه الأبدي على بقعة غزة من العالم فقط.

عفواً، ولكن كيف سأعود إلى حياتي وأنا أشعر بالذنب لأني حية وأتنفس إلى هذه اللحظة؟ -هذا وقد نفيت خلال طرحي للسؤال احتمال موتي خلال الأيام القادمة في هذه الحرب اللعينة.

آسفة لأني على قيد الحياة إلى الآن، لا أعتذر لأثير ضمائر العالم ولا أعتذر للحرب، أنا أقدم اعتذاري للأم التي لم تكن الحرب كافية لأن تعد وجبة ابنها المفضلة ولكنها كانت كافية "وبزيادة كمان" ليعود إليها مستشهداً فتزغرد في جنازته ومن ثم تبكي دماً في لياليها الفارغة منه لسنين، أقدم اعتذاري للأطفال الذين وعدهم آباهم بالأمان بدلاً من العيدية التي مرت مرور الكرام ولم يحصلوا عليها هذا العام لأن شبح العيد مر بالحرب، أعتذر لأن أباهم ذهب في رحلة أبدية إلى الله -حسب رواية الأم- وبقي وعد الأمان قائماً بلا أعياد في الطريق لتأتي، أعتذر إلى الذي كان يرشح العرق من جسده طيلة سنين الكدح واقترض من البنوك و"دفع دم قلبه" ليشتري منزلاً يأويه وعائلته وكانت الحرب كافية لتذهب السنين سُدى وتبقي القروض غير المسددة بفوائدها المركبة أيضاً، وأخيراً أقدم اعتذاري لأنني إلى الآن على قيد الحياة إلى غزة، لأنني يا حبيبتي المتعَبة والمتعِبة لا أدري حقيقة مشاعري تجاهك إلى الآن، وأقبح ما في تلك الحقيقة أنني لن أعرفها أبداً، ولم تكن أصلاً ليوم ما موجودة، وأن كل طريق مؤدي إليها مؤدي إلى الهلاك أيضاً.

الجار الرقم

جارنا أبو أشرف لديه شاحنة نقل، في يوم من أيام الحرب طلب أحدهم أن يستعيرها ليوم واحد فقط؛ لينقل أثاث منزله القابع في المناطق التي لم تكف المدفعيات عن قصفها، كان من المفترض أن يعيدها الرجل ليلاً ولكن أبو أشرف رفض ذلك كي لا تظنه الكائنات المضيئة التي تحوم في السماء

"مقاومة" فيموت، في تلك الليلة نفسها كان القصف شديداً على منطقتي ولكن كما تقول جدتي "ألف الحمدلله إلك يارب هيو طلع الصبح وطلع الضو علينا"، قرر أبو أشرف أن يغادر المنطقة صباحاً لكن الشاحنة لم تكن عنده "ليدحش" أبناءه وزوجاتهم وأحفاده فيها ويغادر فوراً، وبعد عناء شديد وجد سيارة أجرة وافق سائقها على نقلهم إلى المكان الذي سيهربون إليه على مرتين، صعد أبو أشرف وإم أشرف وأولاده "العزابية" وابنتهم وشدوا الرحال، وبقي أشرف وزوجته وولَداه الصغيرين وأحمد وزوجته وابنته الصغيرة وابنه الجنين الذي كان قد أكمل سبعة شهور من أصل تسعة التي يحتاجها الشخص ليخرج من العتمة إلى العتمة، كانوا ينتظرون بالحاكورة عودة السيارة ليلحقوا ببقية أفراد العائلة.

السيارة لم ترجع أبداً، لا لأن السائق قرر عدم العودة، بل لأن صاروخ زنانة أخذهم أجمع إلى الله.

لم أبكِ لأن العناية الإلهية لم تتدخل لتنقذ الأطفال حتى، ولا لأنني فقدت عقلي وتمنيت لو أن أبو أشرف وإم أشرف ماتوا مع أبناءهم كي يموتوا مرة واحدة وإلى الأبد بدلاً من أن يموتوا كل يوم مذ مات أشرف وأحمد وأسرتيهما، بكيت لأن المذيع وبكل بساطة أعلن الخبر عبر الراديو للجميع "استشهد ستة أفراد من عائلة الخليلي في قصف استهدفهم في حي التفاح شرق قطاع غزة"، هل لهذه الدرجة حياتهم كانت رخيصة يا الله ليُختصر طريقهم في هذه الدنيا في عبارة كهذه؟ ويا ليتها على الأقل كانت صادقة يا الله لأن الجنين يُعد فرداً أيضاً، له ملابس وسرير ينتظر خروجه من رحم أمه، جاوبني على سؤال واحد يا الله هل تظن أن أم أشرف ستحتفظ بسرير وملابس حفيدها الجنين أم لا؟

إلى صديق مقرب وعدته بأن أبقى حية:

قطعت وعداً لصديقي بأن أبقى على قيد الحياة رغماً عن أنوفهم -الأنوف التي أقصد معروفة لكم أجمع- ردّ بأنه يرغب بأن أعيش لأنني من المفترض أن أفعل ذلك لا بسبب رضا أحدهم أو غضبه، أخبرني صديقي بأنه سيفقد جزءً من روحه إن مت.

آسفة لأنني أنفذ الوعد بأبشع الطرق، ولكني لم أعد أحتمل أي موت بطيء بعد الآن، أريدهم يا صديقي أن يتركوننا وشأننا فقط، أن يتركوننا ننهي رحلتنا بهذه الحياة بسلام.

يا صديقي ها أنا حية ومازلت على وعدي إلى الآن، لكن هل تعلم لماذا؟ سأجاوبك فقط لأنني أعلم أنك تجيد فن إخفاء الأسرار، أنا حية إلى الآن لأن الموت أسهل طرق النجاة في الحرب، والحياة أصعبها، الحياة أصعبها تماماً .